محمد سعيد الريحاني

قصص للأطفال

موقع ريحانيات

البريد الإلكتروني:

said_raihani@yahoo.com

البريد العادي:

صندوق البريد: 251، مدينة القصر الكبير 92150 / المغرب

الفهرس

1/- لكل سماؤه
2/- وطن العصافير المحبطة
3/- مدرسة الحرية
4/- حلم عصفور
5/- الحاءات الثلاث
6/- عالم حالم
7/- العودة إلى البراءة
8/- لسعة الذاكرة
9/- الخروج من الجنة

لكل سماؤه

" المنطق يأخذك من ألف إلى باء. أما الخيال فيسافر بك إلى أي مكان."
ألبيرت آينشتاين
Albert Einstein

على الأفق الوردي ، ترسو شمس المغيب باسطة، للتواصل مع الشاطئ، جسرا بلوريا يتلألأ على صفحة البحر الذي يذاعب بأمواجه الخفيفة قدمي الطفل الحافيتين: يدفعهما بلطف حين يتقدم نحو الصخور ويسحبهما معه حين يتراجع إلى زرقته، يدفعهما ويسحبهما، يدفعهما ويسحبهما...

سأل الطفل أباه مشيرا إلى البحر:
- أبي، أهنا تعيش القروش ؟

فأجاب الأب مطمئنا صغيره:
- نعم، ياعزيزي، ولكن بعيدا من هنا، هي تفضل المياه الدافئة في أعالي البحار.
- هي قوية !
- نعم: القرش هو ملك البحر ...
- وهنا في البر، من ملك البر ؟
- السبع، يا ولدي. السبع هو ملك البر والغاب.
- ومن الأقوى، السبع أم القرش؟

كان الطفل يبدو متحمسا للموضوع. ربما كان يتصور، أمام عينيه، كل سؤال وكل جواب قصة مصورة وينتصر لأحد شخوص الحكاية.

انتبه الأب للأمر فأجاب على السؤال بسؤال آخر:
- وكيف لأحدهما أن يتفوق على الآخر وكل يعيش في مملكته؟ السبع في الغاب والقرش في البحر. وحتى إذا ما حاول الواحد منهما أن يغير على الآخر مات اختناقا إما على التراب، إذا كان قرشا، أو داخل الماء، إذا كان سبعا.

ابتسم الطفل راضيا وظل ينظر إلى البحر بإكبار وسأل:
- وماذا هناك في البحر؟
- الحياة.

لم يفهم الطفل قصد أبيه فاستدرك الأب الموقف:
- يوجد في البحر نفس ما تراه على البر حولك، يا ولدي: الجبال والهضاب والوديان والأغوار والأشجار والأحجار والنباتات والضياء والظلام... إن الحياة هنا، في البر، تقابلها حياة موازية في البحر. وحيوانات البر تقابلها كذلك أسماك في البحر.
- وهل تتسع كل هذه التضاريس والأحياء والأشياء داخل البحر؟

- ما يوجد في البحر أكبر حجما وأكثر تنوعا مما يوجد في البر.

ضيق الطفل عينيه وهو ينظر بعيدا إلى الأفق:
- ولكن سطح البحر هادئ بلا نتوءات ولا رؤوس تطل من الماء!!!
- لايغرنك السطح، ياولدي.

رفع الأب بكفه وجه طفله الصغير إلى الأعلى وقال له:
- هل ترى تلك القبة الزرقاء الهادئة؟
- السماء، يا أبي؟
- تلك سماؤنا وسماء السباع. أما سطح البحر فهو سماء الأسماك والقروش.
ثم بعد فترة، أضاف:
- إذا خرج البحريون عن سطح البحر، سمائهم، اختنقوا وماتوا. وإذا نحن، البريون، أطللنا برؤوسنا خارج سماءنا، احترقنا ومتنا!

ثم استطرد:
- لكل، يا ولدي، سماؤه. هناك أشكال من العوالم وأشكال من المخلوقات وأشكال من طرق التفكير وأشكال من سبل العيش... هناك اختلافات لانهائية في هذه الحياة. وهذه الاختلافات هي سر الحياة الكبير ونبع غناها الأكبر. ولولاها ما كنا لنستمتع بهذه اللحظة وبهذه الوقفة على هذا الجمال الذي سيجعلنا نعود للبيت أكثر تجددا وأكثر سعادة.

كانت الشمس قد بدأت تسحب بساطها المضيء عن سطح البحر وتختفي رويدا رويدا في الأفق بين السماءين حين شعت السعادة في جوارح الطفل وهو يعلن من وحي اللحظة الملهمة:
- الحياة رائعة، يا أبي!

قالها وهو يضم يده إلى يد أبيه: الأب ينظر إلى السماء والطفل إلى البحر.

وطن العصافير المحبطة

" كل إنسان تعجزون عن تعليمه الطيران
علموه على الأقل أن يسرع بالسقوط."

فريديريك نيتشه،
هكذا تكلم زرادشت (الترجمة العربية) ، ص.239

زحف بكرسيه المتحرك على سطح العمارة صوب الطفل الذي يرقب أسراب العصافير المتزحلقة على زرقة السماء ثم ربت بكفه الباردة على دفء الذراع الصغيرة هامسا:

- تذكرني كثيرا بأخيك، عباس...

تنهد الصغير، ثم :

- أكان عباس يعشق العصافير أيضا ؟

- حتى الجنون ...

صمت الرجل المقعد قليلا ثم أضاف :

- كان يقضي معظم أوقاته في مكانك هذا، وحيدا، يرقب صفاء السماء ويتابع رقص العصافير وهي تعلو وتبتعد...

وحين لاحظ إصغاء الطفل، استرسل :

"كان مغرما حد الهوس بالعصافير، سألني مرة عن لغة تواصلها، فقلت أنـــــها تغــــــني وتزقــــزق، وكــــم أعـ – جـ - بتـ - ـه الـ - فكرة ! فقد صرخ :

- كم هو رائع، ياأبي، الغناء عوض الكلام !...

ثم بحماس زائد :

- والغذاء ؟ !

أجبته بأن العصافير لا تعرف مشاكل غذاء : هي تقتات في أي وقت شاءت ومن أي حقل في الدنيا لأن العالم يصبح أصغر وفي المتناول حين نطير، ولذلك فهي تختار أماكن إقامتها، ومنها ما يختار الحياة فقط في الفصول الجميلة مهاجرا من شمال الدنيا إلى جنوبها بحثا عن الشمس والغذاء...

لكن عباس فاجأني ذات مرة :

- *هل يمكنني أن أطير، يا أبي؟*

نـفيت.

- الأجداد فوتوا علينا فرصة الطيران.

لكنه كان يحتج بانفعال بالغ :

- مالي والأجداد، ياأبي ؟ أنا أسأل عن نفسي ...

وأضطر لأعقلن الأمر :

- كان على الأجداد أن يجربوا الطيران من أول الزمان حتى يكتسبوا أجنحة وينقلوا لنا قدرتهم على التحليق ولكنهم لم يفعلوا. ولذلك نحن الآن على الأرض، بلا أجنحة.

- سألصق ريشا على ذراعي وأطير ...

أجبته بأن الأجنحة لا تلصق. الأجنحة، مثل ملامح الوجه، تورث.

- أنا لن أبقى مسمرا هنا، أنا أريد أن أطير...

- لن تطير...

- سأطير...

لقد جربت قبله ما كان هو بصدد التفكير فيه. أنا أيضا كنت طفلا مثله وحاولت الطيران من حافة هذا السطح غير مبال بحشد الجيران في الشارع تحتي، ممسكين بالملاءات من أطرفها وهم يناشدونني ألا أنتحر :

- ما تنتحرش، راه ما عندك لا دنيا ولا آخرة !...

- ما غاديش انتحر، أنا غادي انطير ! ...

- وراه ما عندك لا دنيا ولا آخرة ! ...

لكنني ارتميت من حيث تقف أنت الآن. إنما عوض أن أطير، سقطت عليهم بقوة حتى تمزقت الملاءات التي كانوا ينشرونها لي فارتطمت بصلابة الأرض وتكسرت ساقاي. والنتيجة أمامك : أنا لا أطير، أنا أزحف... لكن عباس، أخاك، ازداد ولعا بحياة العصافير ونسلها وتغريدها إلى أن وجدت نفسي مرة أزحف بكرسي المتحرك لأطل على الشارع، أسفل العمارة، حيث احتشد الجيران لتضميد الجمجمة المشطورة للذي حاول الطيران، تهورا..."

سحب الأب المقعد كفه الباردة عن ذراع الصغير لاستخلاص العبرة من التجربة. لكن الطفل سبقه، ووجهه دائما إلى الأفق البعيد :

- لا تخف، يا أبي، لن أفعل مثلك ولا مثل عباس...

ثم جازما :

- سأطير، يا أبي، وسأنجح في ذلك.

حلم عصفور

ألا يا طائرَ الفِردو س قلبي لك بستانُ
ففيه الزهرُ والماءُ وفيه الغصن فينانُ
وفيهِ منكَ أنغامٌ وفيه منكَ ألحانُ
وللأشجارِ أوتارٌ ونايَاتٌ وعيدانُ

عبد الرحمان شكري

أمس، حلمتني عصفورا واقفا على الأسلاك العالية، استحم تحت الشمس وأفلي ريشي من الطفيليات. حتى إذا تزودت من الشمس بالحرارة اللازمة، غادرت الأسلاك وحلقت في الأعالي فتصير الدنيا تحتي خريطة صغيرة تجري فيها الأنهار هنا وتنبسط فيها السهول هناك وترتفع فيها الجبال هنالك بين الغمام...

أمس، حلمتني عصفورا طليقا آكل مما شئت من الحقول وأتسلى بسذاجات البشر الذي يعتقدون أن الأرض خلقت لهم وحدهم والماء لهم وحدهم والزرع لهم وحدهم وقد نصبوا لتخويفي من الاقتراب من الحقول "**فزاعات**" من عيدان وأقمشة. كنت أقف على أعواد "**الفزاعات**" وانقر سنابل الزرع وأتسلى بفرق حراسة الحقل تجري نحوي بجنون وتدوس السنابل التي جاءت خصيصا لحراستها من العابثين فقط لإبعاد عصفور صغير عن غذائه. كنت ألزم مكاني فوق "**الفزاعة**" حتى إذا تقلصت المسافة بيني وبين الهاجمين طرت فوق رؤوسهم نحو "**فزاعة**" أخرى وراء ظهورهم لإتمام غذائي.

تساءلت، بمنطق العصافير:
- ترى لو كان للبشر أجنحة، لصادروا السماء والهواء أيضا!

حتى وهم بلا أجنحة، يتفنن البشر في نصب الفخاخ لعصافير قد ينتبهون لوقوعها في الشراك وقد لا ينتبهون لذلك، قد يشوون لحمها و يأكلونه وقد يعافونه ويرمونه. ومع ذلك ينصبون للعصافير الفخاخ ويتفاخرون بعدد الضحايا من صغار الطيور القتيلة بين أيديهم.

تساءلت كثيرا وببراءة العصافير دائما:
- لو قدرت للبشر الحياة بالأجنحة ومعاينة سلوكهم من عل، ترى هل كانوا سيتغيرون؟

الرؤية من فوق مختلفة تماما. من فوق، يتراءى البشر بحجم أعواد الثقاب: يجرون وهم يعتقدون أنهم يطيرون، يتكلمون وهم يعتقدون أنهم يطربون، يضحكون وهم يعتقدون أنهم سعداء، يلتصقون بالأرض وهم يعتقدون أنهم اختاروا الحياة مشيا على الأقدام...

لو قدر للبشر تجربة الحياة في الأعالي، لأدركوا أن القاعدة هي الحياة بالأجنحة ولتذكروا العقاب الذي طالهم عند بداية الخليقة يوم خلعت الأجنحة عن ظهورهم ونتف الريش عن أجسادهم وألقى بهم لمواجهة مصيرهم على الأرض. منذ ذلك اليوم السحيق، تعلموا نصب الفخاخ ومعاداة العصافير بدل تنمية أجنحة جديدة وريش جديد...

لو قدر للبشر تجربة الحياة في الأعالي لتخلصوا من سذاجات التفكير الأرضي. فحين تصير طائرا، لا يبقى ثمة عائق يحد من انطلاقك. حين تكون طائرا فأنت بالضرورة حر طليق.

العطش؟

العطش ليس مشكلة بالنسبة للعصافير فقطرة ماء تكفي.

الجوع؟

حبة زرع تكفي.

السكن؟

كل أغصان الشجر تتطابق مع معايير السكن اللائق.

"مدرسة السماء" مختلفة تماما عن **"مدرسة الأرض"**. مدرسة الأرض تجزيئية يقضي فيها الإنسان معظم حياته يجمع الأجزاء والتفاصيل ليفهم بعد مرور جيل من الزمن كيف تسير الأمور. أما مدرسة السماء فتنجب عصافيرها عارفة بمجرى الأمور وتبقي لهم فرصة الاستمتاع بالتفاصيل...

حين أدركني الصباح مع رنين المنبه قرب سريري ، حاولت جاهدا أن أحافظ على خفق أجنحتي في دماغي وعلى خفق الحرية في فؤادي وعلى دبيب وجدان العصفور الذي كنته في حلمي ولو لثوان كي استأنس بهما حتى إذا ما احتجتهما لاحقا في لحظات الضيق شغلتهما سعيا للخلاص. كان الإحساس رائعا، أروع من أجنحة الحلم ذاتها: أن تتحرك الأجنحة والمراوح والمحركات في الصباح الباكر داخل دماغك فتبدو وأنت تتقدم رأسا في الفضاء الفسيح اللامحدود كمكوك أسطوري يتجه نحو كواكب أخرى، نحو شموس أخرى، نحو مجرات أخرى...

مدرسة الحرية

"إن الأمة المستعبدة بروحها وعقليتها لا تستطيع أن تكون حرة بملابسها وعاداتها."

جبران خليل جبران

اتكأ الشاب بمرفقه على مكتب مديرة المدرسة وقال لها:

- قرأت مرة أنه لا يستحق الحياة من لا يجيد ثلاثا: **"السباحة" و"السياقة "و"القراءة"**. ولما رأيت اللافتة التي علقتموها على أهم الشوارع وكتبتم عليها" **كيف أكون جديرا بالحياة**"، جئت إلى مؤسستكم.

قاطعته المرأة:

- ولكنك لن تتعلم هنا شيئا مما قيل لك وما تقوله لي الآن.
- لماذا؟
- نحن لا نعلم الناس **كيف يحافظون على حياتهم**. نحن نعلمهم **كيف يستمتعون بالحياة مهما قصرت**.

ارتسمت على محيا الشاب علامات الدهشة السعيدة:

- هل تقصدين أن مؤسستكم خاصة **برياضات الدفاع عن النفس؟**

فأجابته المرأة بجدية ظاهرة:

- مؤسستنا تهتم بما يتجاوز هموم العوام من الناس: **الدفاع والهجوم، الحياء والوقاحة، الخير والشر**... إن مؤسستنا تهتم بالحرية وحدها وتشحذ في المنخرطين قيم الحرية وغايات الحرية وتدربهم على أدواتها. إن مهمتنا هنا في هذه المؤسسة هي **"صناعة الأحرار"**.

تحمس الفتى ورمش مهتما:

- أنا أيضا أريد أن أكون حرا. هل يمكنني تحقيق هذه الأمنية في مؤسستكم، **"مدرسة الحرية"؟**
- هذه هي المهمة التي وجدنا من أجلها. لكنك لم تقل لي **لماذا تريد أن تكون حرا**.

اندهش الفتى أمام سؤال لم يطرحه أبدا على نفسه:

- كل الناس تعشق الحرية !

قاطعته واضعة سبابتها على صدره:

- أنا الآن أخاطبك أنت وحدك ولا يهمني رأي غيرك.

هز كتفيه ورفع كفيه حائرا.

واصلت أسئلتها التي لم تطرح عليه في يوم من الأيام:

- هل تقرأ؟ هل تكتب؟ ترسم؟ ترقص؟ تمثل؟...

أجاب الفتى نافيا بالقطع.

وضعت يدها على كتفيه مقتربة أكثر:
- والآن، ألا زال يدهشك سؤالي "**لماذا تريد أن تكون حرا**"؟

انفجرت أسارير الفتى وهو يدرك أن حظه هذه المرة قاده إلى حيث كان دائما يحلم بالدخول. لذلك قالت له:
- إنه لا يمكنك أن تكون حرا ما لم تكن تجيد التعبير عما يختلجك، ولا يمكنك أن تكون حرا ما لم يكن لديك وعي راسخ بأن كل شيء ممكن في هذه الحياة، ولا يمكنك أن تكون حرا ما لم تتشكل لديك قناعة بأن كل ما حواليك مادة خام تنتظر منك أن تشكلها في قالب جميل...

ثم ختمت جادة:
- لن تكون حرا إلا بهذه الثلاثة: **جودة التعبير عن الذات، الإيمان بالممكن، والقدرة على إبداع الجمال.**

تحررت عقدة لسان الشاب، أخيرا:
- وهل تضمنون تخرج المنخرطين في مؤسستكم أحرارا؟

أجابته مؤكدة:
- هذا ليس مختبرا نجرب فيه ملاحظاتنا وفرضياتنا. هذه مؤسسة قائمة تحقيق العروض التي ترفعها شعارا. وكمنخرط جديد، سأصطحبك في جولة بين مرافقها حيث تتم الحصص الأخيرة للتداريب الأخيرة لأن اليوم هو يوم تخرج الفوج الأول. آنذاك سترى بعينك ما تسمعه الآن بأذنك.

أمسكت المرأة معصمه برفق وقادته عميقا بين مرافق البناية نحو الأوراش حتى إذا ما وصلا إلى الباب الأول للورشة الأولى، قرأ لوحة صغيرة فوق الباب كتب عليها: " **باب الخلوة**". أطل من المربع الصغير وسط الباب، فلم يرى شيئا في الداخل غير الظلام فسألها عن وظيفة المكان فقالت:
-" إن مهمتنا في هدا المكان هي "**إرجاع المنخرط إلى الطفل داخله**" كي يسهل تحريره. و"**باب الخلوة**" هو أول حلقات تحرير المنخرطين. **هنا في هذا الظلام، ستعود إلى ذاتك.**"

ثم واصلا التجول قبل التوقف أمام الباب الثاني، " **باب الخيال**"، لتقول:
-" هذا الباب هو الحلقة الثانية بعد الخلوة. وهنا ستبدأ آفاق الرؤية في حياتك بالتمدد والاتساع حتى لا يشملها فضاء من فضاءات الكون".

ثم صعدا الدرج حتى وصلا سلسلة من الأبواب كتب على كل منها داخل لوحة صغيرة نوعية النشاط الممارس داخلها وتكلفت المرأة بالشرح والتبيين:

-" بعد البابين السابقين في الطابق السفلي، هنا "**باب اللمس**" ويتمرن في هذه الورشة المنخرط على تنمية حاسة لمسه فيتعرف في الظلام خشونة الجدار ونعومة الحرير وبرودة الأرض... أما هناك ف " **باب التذوق**" وهو باب الورشة التي ينمي فيها المنخرط في الظلام القدرة على التمييز بين الأذواق فيستمتع بحلاوة العسل وملوحة الجبن وحموضة اللبن... أما هنالك ف "**باب الشم**" وهي ورشة في الظلام أيضا لتنمية متعة الشم واللذة الأنفية فيستنشق المنخرط أشياء أخرى مهمة للحياة والاستمتاع بالحياة غير الهواء فينعم بشم رائحة الشاي المنعنع ورائحة اللحم الطري ورائحة الموز المقشر... وهنالك، على اليسار، "**باب الإصغاء**" وهو باب ورشة خاصة بالإيقاعات تتجاور هنالك، على اليسار، مع "**باب الإلقاء**" حيث يستمتع

المنخرط بقدرته على الإلقاء في كل طلباته وعلى الغناء في كل نداءاته ويستمتع بقدراته على جعل كل أشكال التواصل جميلة وإيجابية ومحبوبة".

ثم قدمته لصعود الدرج نحو الطابق الموالي حيث توقفا أمام أربعة أبواب أخرى:
-" هنا "**باب التصور**". وكما تعلم فالتصور يختلف عن التخيل من حيث القدرة على التحقق على الأرض. لذلك، ففي "**باب التصور**"، يستمتع المنخرط بتصور وأداء أدوار ومواقف وحالات متجددة. أما هنا ف "**باب النظر**" وهو، كما ترى، مضاء بنافذة تطل على منظر طبيعي خلاب يمكن المنخرط من الاستمتاع بصريا بكل ما حواليه من خطوط وألوان وأشكال وموازين وزوايا نظر وظلال وأنوار... أما في هذا الباب، "**باب الحركة**"، فيعي المنخرط الحركات الجسدية التي يتواصل بها بعدما كان من قبل يجهلها، فيستمتع بالتفنن في اختيار المشية الجميلة وتجريب الإيماءات الجذابة والذوبان في الرقص المعبر... أما في هذا الباب الأخير، "**باب الفروسية**"، فكما تسمع من خلال أنين اللذة الصداحة، فهو باب ورشة خاصة بالانطلاق ويمكنك أن ترى من خلال المربع الصغير وسط الباب كيف تمتطي النساء جيادا طليقة وكيف يمتطي الرجال خيلا جموحة".

اعتقد الشاب أن الأبواب الأربعة الأخيرة هي نهاية الرحلة بين طوابق هذه المدرسة العجيبة لكن المرأة دعته للصعود نحو السطح لحضور حفل تخرج الفوج الأول من الأحرار.

على السطح، عشرات من الشباب بوجوه سعيدة وإيماءات جذابة يتصافحون ويتعانقون ويتبادلون التحايا بأفضل منها صمتوا جميعا عند صعود رجل في منتصف العمر تشع الطاقة من محياه إلى المنصة لقراءة ورقة يبدو أنه أعدها خصيصا لهذه المناسبة:

" أيتها المشاعل الغدوية الجميلة، في عيد تخرجها من «مدرسة الحرية».

قد يفتخر البعض بممتلكاته العقارية والمنزلية وقد يفتخر البعض الآخر بعلاقاته المهنية والاجتماعية، وقد يفتخر البعض المتبقي بانتماءاته العائلية والحضرية والقبلية... أما أنا فافتخر بشيء مختلف تماما: إنني أفتخر دائما بكوني حظيت بشرف مجالسة الأحبة خلال احتضارهم وسمعت على لسان أكثرهم "سر الحياة".

إن المرء، عند احتضاره، لا يذكر شيئا مما يفتخر به المرء خلال حياته: لا الممتلكات ولا العلاقات ولا الانتماءات... عند الاحتضار، لا يفكر المرء سوى في اللحظات المضيئة التي عاشها في حياته. وحدها اللحظات السعيدة تعينه على الانتقال إلى العالم الآخر سعيدا مطمئنا، راضيا مرضيا.

أيتها المشاعل الغدوية الجميلة، في عيد تخرجها من «مدرسة الحرية». إنكم في هدا السن تجمعون اللحظات السعيدة وتراكمون الأفراح والمسرات في ريبرتوار ذاكرتكم، وقد يكون هدا الحفل الذي اجتمعنا لتخليده هو اوج ما وصلتم إليه من سعادة. كما قد يكون بداية عصر السعادة في حياتكم. لكنه، حتما، سيبقى أخلد اللحظات في حياتكم وأسعدها. وستكون لكم في المستقبل دشا مطهرا من كل غبن أو إحباط. سيكفيكم الضغط على الزر الدي سيعيدكم سنين على الوراء إلى هده اللحظة الفردوسية وستتلاشى أمامكم كل العوائق وتنفرج أمام أعينكم كل العتمات...

أيتها المشاعل الغدوية الجميلة، في عيد تخرجها من «مدرسة الحرية». طوبى لكم بهذا النجاح وطوبى لكم بهذه اللحظة السعيدة ودامت لكم المسرات".

ثم بدأ الشبان والشابات في الصعود فرادى إلى المنصة للتوشيح بميداليات نقش على سطحها صور دلافين وللتتويج بأكاليل صغيرة من الورود.

سأل الشاب الزائر مرافقته:

- وماذا بعد هذا التوشيح؟ ماذا سيفعلون بهذا التتويج؟

فأجابته المرأة:

- الآن وقد صاروا أحرارا، سيمكنهم الطيران. إن هذا التكوين وهذا التوشيح وهذا التتويج لا يسمح لهم بالنزول إلى الأرض قصد البحث عن فرصة عمل في مقاولة من المقاولات بل يحقق لهم حلم العمر، حلم الفراشة: "**الطيران**".

في تلك الأثناء، كان الشاب يشاهد منظرا خرافيا: الخريجون من الشباب حوله يتحولون إلى دلافين على سطح العمارة ويقفزون سقوطا حرا في الهواء سابحين في زرقة السماء بمتعة دلافين طليقة تماما كما يتمنى كل إنسان في خلوته.

صرخ باندهاش:

- هل تمكنهم الزعانف من الطيران؟

فأجابته المرأة واثقة ومطمئنة:

- الزعانف والأيدي والأجنحة سواء: قد تصلح للسباحة والرسم والطيران. ليست الزعانف ما يعيق الطيران وإنما العوائق هي ما يحمله الإنسان داخله، وليست الزعانف ما يساعد على الطيران وإنما الإرادة على التغير والتصميم على تحقيق حلم الطيران.

كانت المرأة توسع أفق الرؤية أمام عينيه بينما كان هو يستعجل النزول إلى الطابق الأول نحو غرفته الأولى، "**باب الخلوة**"، اقتفاء بخطى الدلافين الطليقة.

الساعات الثلاث

" لتحقيق إنجازات عظيمة، علينا ليس فقط الفعل بل الحلم كذلك، وليس فقط التخطيط بل الإيمان أيضا."

أناتول فرانس
Anatole France

لا أعرف لماذا يتسلل أبي خفية إلى الغرفة السفلية المهجورة كل فجر ويقفل الباب وراءه.

أتراه يتعبد؟

لكن العبادة لا تستلزم كل هذا الحذر.

أتراه يمارس طقسا سحريا؟

لكنه بلا أدوات: لا مجمر ولا محبرة ولا أعشاب ولا أثواب ولا أعضاء حيوانية...

هو يقرأ فقط. ومن خلال ثقب المفتاح على باب الغرفة يمكنني أن أرى بجلاء اهتمامه بالنص بين يديه. فحدقتاه متسعتان، ورأسه أقرب إلى الكتاب المهترئ بين يديه، والصفحات تنقلب بسرعة، وأنفاسه في صمت الفجر تسمع سريعة وغير إيقاعية ...

أتراه يتصفح كتابا إيروسيا ؟

ظللت أرقبه حتى انتهى من قراءته وطقوسه وأغلق الكتاب ثم وضعه في دولاب في خزانة مغبرة ترتكز على رجلين في الأمام وعلى الحائط في الخلف. أغلق الدولاب بمفتاح فضي ثم وضعه في حقيبة قد ابيض سطحها غبارا. أغلق الحقيبة بمفتاح نحاسي ثم وضعه في علبة خشبية سحيقة القدم ثم أغلق العلبة ووضع مفتاحها الصغير تحت الحصير. فانسحبت إلى ظلام "المخيزن " لأفسح له المجال للانصراف الآمن ...

تابعته من الخلف وهو يصعد السلم درجة درجة ورأيته ينظر للساعة على معصمه: السابعة صباحا. لن يعود أبي من العمل قبل منتصف النهار وهي فرصة كافية لإعادة قراءة كتاب أبي المفضل في المكان المفضل ولكن في غير الفجر...

رفعت الطرف الأيمن من الحصير. تلمست بيدي الأرض تحته بحثا عن المفتاح الأول. وجدته. فتحت العلبة فتدفقت رائحة الخشب القديم إلى خياشيمي. انتشلت المفتاح النحاسي وفتحت الحقيبة. إلا أنني لم أجد في الحقيبة المفتاح الفضي!... ولكنني رأيت أبي بأم عيني وهو يضع مفتاح الدولاب في الحقيبة!...

حركت الحقيبة بقوة، سمعت صليلا معدنيا لعدة قطع في أجزاء خفية داخل الحقيبة. رفعت الحقيبة. نفضتها. تساقطت عدة مفاتيح منها. جربت فتح الدولاب بالمفتاح الأول بالثاني بالخامس...

أخيرا، انفتح الدولاب !

أخيرا، ها هو الكتاب اللغز !

هل هو مصحف ؟

لا، الكتاب منسوخ بالخط المغربي ولكنه، قطعا، ليس مصحفا. ربما هو وصية لأن الكتاب يبدأ بشجرة الأنساب تتفرع في أعلى الصفحة وتتجذر في الأسفل. لكن اسمي العائلي يتكرر في كل فرع وفي كل جذر: هؤلاء،إ ذن، أجدادي وهذه خريطة الوصول إليهم.

الصفحات الموالية تحمل أسماء أجدادي كعناوين. أما النص، وهو في الغالب من فقرتين أو ثلاث، فيبدو بخط يد الجد المذكور في العنوان أعلى كل صفحة. كل نص مخطوط بيد مختلفة. هذا يعني أن هذا الكتاب عمره قرون لأنه عايش كل أجدادي. وهذا وحده يشفع لحالته المتردية بفعل الزمن ورطوبة المكان وشغب الأيادي الفضولية للأجيال المتعاقبة على قراءته وتدوين ملاحظاتهم...

ماذا كتب الأجداد ؟
قرأت الشهادة الأولى.
انتفضت.
قرأت الشهادة الثانية.
تمكنت مني القشعريرة.
قرأت الشهادة الثالثة، العاشرة، التسعين...
أنا أرتجف.
هل أنتمي لسلالة الملاعين؟
هل هي اللعنة ؟
هل كان كل أجدادي أشقياء ؟
كيف تمكن الشقاء من سلالة بأكملها ؟
كل أجدادي يقرون بخط يدهم بشقائهم وبؤسهم لعدم التزامهم بنص وصية الجد الأكبر الذي حدد لهم السعادة في عدم إغفال " **الحاءات الثلاث** ".
أين الوصية، إذن ؟
قلبت الكتاب صفحة صفحة. من اليمين إلى اليسار. من اليسار إلى اليمين...
أين الوصية، إذن ؟ !
الوصية يجب أن تكون في مقدمة الكتاب مادامت تحيل على الجد الأكبر!...
الوقت لا يرحم والقلق يتمكن مني وأصابعي تفقد صوابها والكتاب المهترى يفقد خيوطه وأنا أفقد أعصابي ولا أنتبه إلا وأجزاء الكتاب قد انفصلت عن الغلاف وسقطت على الحصير وتناثرت أوراقه وسط زوبعة من الغبار وضجيج من السعال.
في العجلة الندامة !...
خرجت من الغرفة لأستطلع رد الفعل في البيت: لا أحد يهتم.
ألقيت نظرة على الشمس: لا زال الوقت في صالحي.
عدت إلى الغرفة ثانية.
جلست هذه المرة على الحصير. سحبت أنفاسا عميقة لأطرد التوتر داخلي. أستنشق هواء جديدا. أزفر التوتر. استنشق هواء جديدا. أزفر التوتر. أستنشق. أزفر...
الآن، عاد إلي هدوئي وصار بإمكاني إعادة ترتيب الأوراق والأجزاء بين دفتي الغلاف:صفحة بعد صفحة وجزء بعد جزء و... أوه!
ها هي الوصية !
ها هو لغز الألغاز !
ها هو مفتاح السعادة !
ها هي الحاءات: "**الحاءات الثلاث**"!...

<u>(1)– حاء الحرية:</u>

" جميعنا، يا ولدي، يمتلك خيطا رفيعا داخله يصله بالطفل الصغير الذي كانه: ببراءته وسعادته وخفته وشغبه الجميل في تنشيط السؤال وإباحة التجريب. لكن المعركة الوجودية بأسرها، يا ولدي، تتركز حول الإمساك بهذا الخيط. فإذا أمسك به غيرك أو رهنته إياه، تحركت بإرادة الآخرين ورقصت لرغبتهم وهدأت لسكونهم وبكيت لبكائهم... آنذاك، اعلم، يا ولدي، أنك صرت أرجوزة في يد غيرك أو دمية من دمى العرائس.
أما أن تمسك بالخيط فهذا ما لا يمكنك تحقيقه إلا عبر بوابة الحاء الثانية، بوابة الحلم: مرشدك لعالمك العميق، وصديقك الذي لا يأبه لقلقك فيضعك أمام المرآة ويعرض لك وجهك الحقيقي باسمك الحقيقي ومحيطك الحقيقي...
فمرحبا بك، يا ولدي، في عالم الحلم: عالم الحقيقة !"

<u>(2) - حاء الحلم:</u>

" قد تكون ،يا ولدي، عاشقا للموسيقى والنغمة المخلصة من سطوة الصمت والخرس. وقد تكون عاشقا للتشكيلات اللونية المحررة للبصر من نمطية الرؤية. وقد تكون عاشقا للشعر فتتجدد نبضاتك على وقع الصور المبتكرة والوزن الأصيل. وقد تكون أيضا عاشقا للفرجة التي تفتح العوالم الصغيرة على العوالم الكبيرة وتبدأ بالهزل لتنتهي بالجد ... لكن العشق، كل العشق، يا ولدي، هو أن تعيش حلما في غفوتك وتتذكره كاملا في يقظتك. وهذا مالا يحدث ل" يا أيها الناس ": أن تتخلص من كل قوانين الطبيعة وتطير حرا كاليمام، خفيفا كالغمام، طليقا كالريح. أن تلقي جانبا كل قوانين المجتمع وتتعرى كطفل فرحان بتعلمه المشي، وتجري مبتهجا في الشوارع الرئيسية غير آبه بقوانين السن والنوع والقبيلة والعرق... " العشق يا ولدي هو أن تعيش **حاء الحلم** ".

(3) – حاء الحب:

" الحرية، يا ولدي، تستلزم تأطيرا وتنظيرا. والحلم يؤدي هذه الخدمة للحرية. لكن الحلم يتوقع فعلا واقعيا يحققه على الأرض. وهذا الفعل الواقعي هو الحب. الحب، يا ولدي، رحلة لا تنتهي. إنه مغامرة تكسبك النضج. ومقياس النضج هو العطاء. فالحب عطاء من الوقت والمال والعقل والروح والجسد... ولذلك، فالحب، يا ولدي، تجل من تجليات النمو النفسي والعقلي والجسدي. ولكنك، يا ولدي، لن تحب ولن تستمتع بالحب ما لم تحب نفسك: أحب ذاتك قبل أن تحب الآخرين. عد إلى ذاتك. تعرف مزاياك. راقب نقط قوتك. استمتع بجمالك أمام المرآة. تذكر لحظات السعادة والذكريات المشعة في حياتك. راجع معجمك الإيجابي وأسلوب خطابك المحبوب عند كل المجالس. افتخر بما تتميز به عن باقي الناس، فالاختلاف وحده مبرر استمرارية الوجود...

يا ولدي، أحب نفسك كي تحب الآخرين. إنك إذا امتلكت الحب حررت الأشقياء من البشر، وإذا امتلكت السعادة أفرجت عن البؤساء من الناس، وإذا امتلكت النور أضأت ما حوليك..."

الأن الساعة الثانية عشر زوالا.

طويت الكتاب.

وضعت الكتاب في الدولاب وأغلقته بالمفتاح الفضي.وضعت المفتاح في الحقيبة. أغلقت الحقيبة ووضعت مفتاحها النحاسي في العلبة. أغلقت العلبة ووضعت مفتاحها الصغير تحت طرف الحصير.

خرجت وأغلقت الباب ورائي ثم صعدت لأنتظر أبي في غرفة الأكل.

وفي فجر الغد، كانت عيني على موعد مع ثقب مفتاح باب الغرفة السفلية لأرقب طقوس أبي التي لم تعد ملغزة قط. فمن الآن فصاعدا، عوض ان أركز اهتمامي على الكتاب بين يدي أبي ، سوف أركز على تفاعل أبي مع الكتاب بين يديه.

لكن طقس أبي، هذه المرة، كان مختلفا. فعوض أن يركز هو اهتمامه على قراءة الكتاب، كان يركز اهتمامه على قراءة بصمات الأصابع الصغيرة على سطحي العلبة والحقيبة المغبرتين ويتمعن في الرجلين الحافيتين المختومتين جيئة وذهابا في اتجاه المفتاح تحت طرف الحصير... وانتبهت إلى عينيه فوجدتهما مركزتين علي، خلف ثقب المفتاح !

ربما غفا؟ !

لكنه يرمش باهتمام.

هل هو يراني؟ !

التفت حوالي وتأكدت أنني في الظلام. وعدت لأغرس عيني في ثقب المفتاح لكن الباب انفتح في وجهي ووجدت نفسي راكعا أمام أبي وهو يقاوم ابتسامة ماكرة:

- لقد أقلقتك يا ولدي بكثرة الضجيج !

ارتجلت جوابا قبل أن تشل المفاجأة لساني:

- نعم، يا أبي. ولذلك نزلت لأتحرى السبب.

ربت أبي على قفاي بكفه:

- حسنا، يا ولدي. تفضل وقم بتحرياتك على مهل.

ثم انصرف صاعدا السلم درجة تلو الأخرى.

العودة إلى البراءة

" ما معنى أن تكون لنا أم؟ أجب من غير أن تلجأ إلى فرويد ولا إلى النصوص المقدسة؛ واجب في غيبة الأب، ودون أن تلجأ إلى العقل المحلل ولا إلى الحاسوب. أتلعثم وأسهو. الأم لا يسأل عن سبب وجودها، أتمتم. تملأ الحيز الهش، العطوب، في نفوسنا وتجعلنا نرى المعنى حيث تنتفي الدلالة، وتتداعى الترابطات. وأقول الآن إنها كالشعر: رغبة في معانقة المطلق، تفتح لنا أبوابها بالذات عندما تبدو الأبواب جميعها موصدة."

محمد برادة
" لعبة النسيان"
ص125

كان يا ما كان في قديم الزمان، بين جنان الشجر والشلالات والوديان، كائن سعيد يحاور الطير والنسائم والأغصان بعنفوان، موائده فواكه الشجر ولحوم الحيوان، حفلاته يومية أجواقها الطيور الطليقة والنحل الطنان، لم يسمع في يوم من الأيام لغيرها من الألحان، معاجمه كلمتان: **فرحان / شبعان**، حاجاته بسيطة لا تقبل التأجيل أو الحرمان.....

ثم كان أن اكتشف فجأة اللهب، فلم ينتبه لنفسه إلا وساقاه تطلبان الهرب، حتى إذا استدار وجد الغابة خلفه تحترق في صخب: اختناق الحيوان واحتراق النبات والأعشاش والخشب، وكل الأشجار حطب على حطب، جحظت عيناه وهو خلف الصخر يرقب هذا العجب، هل هو الفاعل؟ هل هو السبب؟ هل هذه هبة ضلت طريقها أم لعنة أم عطب؟ ثم انتبه للمساحات المحترقة و الضواري المتفحمة وأنين كل ما هب ودب ، فانفرجت أساريره وهو يرفع كفيه للسماء صائحا في صخب: " هذه تفاحتي المحرمة، هذه عصايا السحرية، هذه أم اللعب"...

وكان أن أحس لأول مرة تلك الليلة بمتعة الدفء والضياء، متعة لا يستشعرها إلا من عاش طويلا في الدهماء، فاستل حطبة ملتهبة صالحة للدفء والشواء، ثم شرع يشوي القنافذ ويزدردها باشتهاء، يا للذة! يا للمتعة! يا للانتشاء! كيف كان يطيق أكل اللحم دون شواء؟ يا لضياع أمسه! يا للغباء! لكن ذلك كان قدرا وهذا لا يحتاج لكثير من الذكاء، أما اليوم فقد صار مركز الكون وهذه النار أولى هباته من السماء.

نار، خير الهبات، خير الهدايا، خير السلط. لا شيء يوقف زحفه بعد الآن: لا الأدغال ولا الضواري ولا الظلام بعدما سقط، ثم صاح: " أنا مركز الكون وما دوني هوامش لاحق لها في محاسبتي على غلط، لست إنسان الغاب بعد اليوم: أنا مالك المفاتيح، أنا صاحب السلط، ومن السماء تأتيني الهبات والإلهام والخطط؟ وهذا إلهامي الجديد:سأحرق هذه الغابات وأنفي تلك الضواري، هل من شطط؟ سأبني مسكني وأربي ما شئت من بهائم ومواش وبط، وسأروض الباقي لخدمتي: فالجواميس بقر والذئاب كلاب والأسود قطط، وستصبح كل هذه الدنيا لها وحدها فقط، فلتعلف ما شاءت ولترعى حيثما أرادت فلن تخاف ذئابا ولا أي رهط، فلتعلف ولتسمن ولتتكاثر فمعدتي الآن تهضم الفراغ ولعابي قد سقط، أنا مركز الكون فشكرا لله على اختياري مجددا للدنيا ومخلصا إياها من القنط"...

ثم بدأ حربه المقدسة: ماشيته في النبات تعبث وهو في الضواري يبيد، وينكح من الإناث ما طاب له سعيا للتكاثر والتأبيد، " البنون: زينة الحياة الدنيا وقبيلة للدفاع عني بالنار والحديد، البنون: استثمار بشري لدرء المخاطر في مجاهل الغد البعيد، البنون! البنون! نعم الإيقاع ونعم التغريد"...

وبدأ التناسل وبدأ التكاثر وبدأ الانفجار، انفجار هز التواثب وتجاوز الحدود والأسوار، انفجار السكان والاستهلاك والنفايات والدمار، انفجار المطالب اللانهائية والحاجات المترفعة عن كل شرط أو معيار: الحاجة إلى المعادن، إلى المياه إلى الأخشاب إلى الأحجار، تلبية لتزايد المطالب وسعيا للمزيد من الإعمار، وبدأت تطل من القمقم أصناف جديدة من السموم والأضرار، السموم دخان أسود يتصاعد من كل الأقطار، من عوادم السيارات وفوهات المعامل ومداخن الديار، السموم نفايات تبدأ أولى رحلاتها في مجاري الأنهار، تقتل وتبيد وتعبث وتحيل الحياة في المياه إلى قفار، السموم سليلة التجارب النووية والمناورات العسكرية والحروب وتلك أشكال الاستهتار، السموم ماذا عساها تكون إذا شئنا كشف كل الأسرار؟ السموم ماذا عساها تكون غير تجل كيميائي لأمراضنا: لأمراض العواطف والأفكار؟ السموم حوالينا تعبير عما وصلت إليه الرحلة الاستنزافية من انهيار، السموم حوالينا هي سموم اختيار، السموم حوالينا هي سموم استثمار...

هل تسمعون سعال المختنقين وأنين المرضى وأسئلة الحيارى؟

هل ترون النزوح الجماعي والتصحر والتملح والتعرية والمجاعات والأوبئة تنخر الأبرياء صغارا وكبارا؟

هل تحسستم المسخ ينخركم نخرا ويقذف بكم إلى الموت انتحارا؟

هل تصفحتم قواميسكم وتوقفتم عند خطر التلوث والاستنزاف مرارا؟...

وهكذا عاد صاحبنا الإنسان، بطل الحكاية وقد تمكن منه الذنب والخذلان، لجادة الصواب طالبا الصفح والغفران، داعيا لقيم غدوية مرجعها قدسية الأم – البيئة كعنوان يعلو فوق كل القيم في كل زمان ومكان، شعاره: " توازن النظام البيئي شرط أساسي لاستمرارية الإنسان".

وعلى كل من لازال عند مفترق الطرق أن يختار ما بين الانتماء إلى قفار أو مزبلة أو جنان.

عالم حالم

هل اتخذت الغاب مثلي   منزلا دون القصـور
وتـــتبعت السواقي   وتسلقت الصــخـور
هــــل تحممت بعطر   وتنشفت بنـــــور
وشربت الفجر خـــمرا   في كؤوس من أثير

جبران خليل جبران
- أعطيني الناي-

السكينة أو اللطافة أو النقاء هي أسماء متعددة لمسمى واحد: نسيم عليل بابه الأفق الأزرق الرحيب ومدرجه الأشجار المتنوعة الأصول والأشكال المتراصة في كل مكان في هذه المدينة الآمنة، في حدائق المنازل، في الساحات والحدائق العامة، على الطرقات، في البساتين، على الجبال المتاخمة للسماء...

حفيف أوراق الشجر، تحت لمسات الهواء العليل، يملأ الكون تصفيقا خفيضا وهمسا عاشقا. لا صوت يعلو على حفيف الشجر وضحك الأطفال وهم يجرون بسعادة ظاهرة بين الأشجار الباسقة في الساحات والحدائق العامة ويتمرغون كالقطط الآمنة على العشب الندي تحت دفء الشمس الوديعة.

أسراب من النساء والرجال، بملابس رياضية، تصل بين الفينة والأخرى في ركض خفيف إلى جنبات الحديقة العامة. يجرون بانسجام وتوازن ثم يتوقفون ليتنفسوا ملء الرئتين هدية السماوات العلى. يجددون وجودهم بالشهيق والزفير ويتبادلون النسيم بالنسيم. حتى إذا ما تجددوا هواء وحيوية، علت البسمة وجوههم من الرضا وواصلوا الجري دونما تسابق أو تخاذل حتى ينعطفوا خلف الأشجار الوارفة الظلال والورود المتشابكة السيقان حيث يجلس آباء وأمهات الأطفال في انتظار وصول الناقلة.

بعض الآباء والأمهات يجلسون مستندين على جذع شجرة متشابكي الأيدي في حنين لذكريات لا تزال مشعة في لمعان العين وحرارة اللمسة وبياض البسمة. وبعضهم ينشد التوحد مع الصفاء: ينقر بمسمار معدني جرسا نحاسيا صغيرا يتدلى بين الإبهام والسبابة ثم يصغي للرنين الصافي وهو يتناقص ويتناقص ويتناقص حتى إذا ما تلاشى أثر الصوت أعاد النقر والإصغاء للرنين الذي ينقله إلى الصفاء البعيد والتجدد الكامل. وبعضهم الآخر ممدد على العشب الأخضر يستمتع بخيوط الشمس الذهبية تلعق جلده والنسيم يعبث بشعره وزقزقة العصافير وحفيف الشجر ورنين الأجراس الصغيرة ينقي مسامعه فلا يتنبهون لمرور الزمن إلا على وقع نفير الناقلة المنضبطة لمواعيدها انضباط الفصول في التعاقب والشمس في الشروق والمطر في الهطول والمياه في الانسياب والربيع في النمو والأزهار في التفتح والطير في اللقاح...

سائق الناقلة، يعي جيدا سبب تخلي سكان المدينة عن سياراتهم الخاصة ودراجاتهم النارية. فهم لا يمكن أن يكونوا قد تخلوا عنها بسبب الإجراءات والتضييقات الجبائية الجديدة ما داموا هم أول من طالب بها: الضرائب العالية على السيارات القديمة، التسعيرة العالية لمواقف السيارات، العمل بالبنزين الخالي من الرصاص وحده دون سواه بعد حظر استعمال أنواع الوقود الرديء ذي الضرر العالي والذي تسبب في أمراض سرطانية لعدد غير قليل من سكان المدينة.

لا هذا ولا ذاك. فسكان المدينة واعون بمسؤولياتهم اتجاه ما ورثوه من ثروة كبيرة: بيئتهم. ولذلك كان عليهم التحلي بالشجاعة اللازمة للحسم في مستقبلهم: فإما أن يحافظوا على هذا الإرث وإما أن يدمروه. ولوعيهم

بأنهم هم أنفسهم البيئة التي تنتظر منهم الحسم في قراراتهم، فقد انتصروا لمبدأ الحفاظ على البيئة وحمايتها وتخلوا عن مشاريع التباهي بالسيارات وتسميم الهواء والشجر والبشر بعوادمها واتفقوا على أن تستغل السيارات فقط لنقل أكثر من ثلاثة ركاب، كما تم الإجماع على اتخاذ وسائل النقل العمومي وسيلة أساسية للتنقل والتحرك داخل وخارج المدينة.

عنترة، سائق الناقلة، يعرف كل هذا. بل هو يساند هذه الخطوة نحو التطهير الشامل للبلاد والعباد. فهو يؤمن إيمانا راسخا بأن التطهير لا يمكنه أن يبدأ إلا من تطهير البيئة، بيئة النهر والنبتة والإنسان. البيئة الطاهرة، في نظره، لا تنتج إلا كائنات جميلة وعواطف طاهرة وثقافات حقيقية. ولإحساسه بدوره الخطير في إمكان حدوث ردة لدى سكان المدينة عن هذا الميثاق، يحرص عنترة أكثر من كل أمر على الانضباط لمواعيد الانطلاق والوصول إلى المحطات الفرعية والنهائية. بل هو يحرص أيضا على تذكير الركاب بأنه على وعده حتى الموت وأنه لا ردة عما اتفق عليه مهما كانت الظروف والتبريرات.

من نوافذ الناقلة، تطل الشمس المسائية تارة من زجاج الجهة اليمنى وتارة من الجهة اليسرى على وجوه الأطفال وقد ناموا، مطمئنين، على حجور أمهاتهم اللواتي توصلن اليوم صباحا برسائل تهنئة من إدارة المدرسة ليس فقط بمناسبة نجاح أطفالهن في دراستهم بل بهذا النبوغ الجديد والمتجدد الذي اختار أبناءهن فجأة. فقد أصبح الأطفال، بشكل استثنائي، قادرين على كل شيء: دقة الملاحظة، التفكيك، التركيب، روح المبادرة... كما تخلصوا من عادات سيئة كقضم الأظافر ومظاهر فزيولوجية مرضية كالسمنة والشحوب لفرط مكوثهم داخل البيت قبالة التلفاز لصرف انتباههم عن اللعب في الخارج مخافة حوادث السير ... ومع ذلك فلا أحد من الإداريين أو الأساتذة في المدرسة توصل لتفسير ذلك: وحدهن الأمهات يملكن مفاتيح فهم هذا التغير ولذلك فهن يواظبن على الذهاب للحدائق والمنتزهات مع أطفالهن بعدما خفت آثار التلوث بالمدينة.

آخر المحطات.

وقوف الناقلة.

سكوت المحرك عن الهدير.

الأمهات توقظ أطفالهن، استعدادا للنزول. يحرس عنترة، السائق، على تذكير النازلين من الناقلة، والبسمة لا تفارق محياه بوفائه بوعده وأنه لا ردة بعد اليوم. لكنه لا ينسى أن يسألهم عن مصادرهم في الطاقة ومشاكلهم معها في البيت. حتى إذا ما اندلع الحديث بين الناس وعبروا عن ارتياحهم لمصادرالطاقة النظيفة البديلة للكهرباء، قال:

- الشمس بالمجان، كانت وستبقي. وهي تعطي دون أن تطلب. ومع ذلك فنحن نحترس في الاستفادة منها في أمورنا المنزلية!...

فأيده آخر:

- عندنا الشمس وعندنا الريح وعندنا الماء وعندنا كل مصادر الطاقة النظيفة المتجددة ولكن حين يكون التلوث سلوك يومي فلا يمكن الإضاءة إلا بمصادر طاقة ملوثة...

وتدخلت امرأة لتختم وقد وطأت قدماها الأرض:

- قولوا " كنا عميانا" وكفى. فالأعمى لا يدرك درجة الحرمان الذي يحياه إلا بعدما تبصر عيناه النور. آنذاك يقارن بين فترتين من حياته ويندهش لكونه كان يقبل الحياة طول تلك المدة في الظلام...

قالتها ثم ابتعدت عن السائق الذي كان يستعد للانطلاق وفي قرارة نفسه ترن عبارة المرأة الحكيمة: " كنا عميانا". ثم همهم وهو يحرك عجلة القيادة جهة الشارع الهادئ ليعاود الرحلة الدائرية وليثبت للأفواج المنتظرة من الركاب أنه على وعده إلى الأبد وأنه لا ردة إلى الماضي:

- كنا عميانا، نعم. ولكننا أبصرنا النور وهذا ما سنورثه للأجيال القادمة.

لسعة الذاكرة

" ليست الأعالي ما يخيف بل الأعماق، فعلى الجرف تحدق العين في الهاوية وتمتد إليه نحو الذرى فيقبض الدوار بالإرادتين على القلب".

فريديريك نيتشه،

هكذا تكلم زرادشت
(الترجمة العربية) ص. 170

- دادة زهرة !

لعل هذا هو أحب نداء إلى قلب هذه الطفلة التي تنتظر بفارغ الصبر وقت عجين الخبز كي تجالس من تحب : خادمة عجوز ينتشر الوشم من أعلى جبينها حتى يختفي تحت صدر قفطانها المهترئ ليطل ثانية على ساعديها المكبلتين بدمالج معدنية رخيصة...

هكذا تلتصق الصغيرة بجسد الخادمة فيسري إليها انقباض عضلات العجوز عند ذلك العجين أو رجوفها عند لسعة الغلاي الساخن لإحدى ساقيها العاريتين :

- أوه ! هل أحسست بارتعاشتي ؟

ثم :

- إيه، يا بنتي، مجرد لسعة غلاي أصبحت تؤلمني ! ...

- هي تؤلم أي كان، يادادة .

- لا، يا ابنتي، ليس أي كان.

ثم تشرد الخادمة العجوز في ذكريات بعيدة تقارن خلالها اللسعات :

- لسعة كهذه، يا ابنتي لم أكن أعيرها أدنى اهتمام أيام شبابي، ربما كانت صفائح أقدامنا غريبة عنا، فقد كنا نرقص على أرض لا فحة في أعراس الأعيان دون أن تعلو محياها إيماءة ألم...

- ولماذا كنت تفضلين الرقص على الأرض الساخنة يا دادة ؟ !

- لم يكن خيارا بين أيدينا، كان ذاك قدرنا، نحن النساء، فالرجال كانوا يحرقون الأعشاب على ساحة العرس ثم يكنسون بعد ذلك ما ترمد وتفحم من الحطب أو الأعشاب ليدفعونا للرقص على

حرارة المكان، حتى إذا حاولنا الهرب من لهيب المـــرقص أو الإحتمـــاء بطـــوق المتفـــرجين، صدونا، هكذا اكتسبنا مع توالي الأعراس، تقنيات الرشاقة وحماس الرقص...

وتصيح الطفلة افتخارا ببطولة أعز امرأة :

– أنت عفريتة، يادادة، مادمت لم تتركي جلود قدميك هناك !...

بأسى :

– لا يابنتي، ففي البداية تنفظت قدماي ومرضت وتعفنت... داويتها بالأعشاب حتى شفيت، لكنني لم أعد أشعر منذئذ بأي أذى تحت قدمي : لا الزجاج ولا المسامير ولا حتى النار، لقد ماتت جلـــدة قدمي ومات معها إحساسي بلهيب المرقص. آنذاك بدأت أرقص بهدوء. ثم بخمول. ثـــم اســـتغني عني ...

الطفلة، غير راضية :

– ولم قبلت الرقص بينهم منذ البداية ؟ !

– وماذا عساني أفعل ؟ لقد اختطفت لذات الغرض .

الطفلة مندهشة :

– لكنك كبيرة، يا دادة، فكيف تختطفين ؟ !

– الكبيرات مثل الصغيرات، لم ينج من الإختطاف إلا من خاف عليها آباؤها فوشـــموا لهـــا وجههـــا وأطرافها لأن مختطفي النساء يفضلون عذرية الوجه والجسد.

الطفلة، محتجة :

– ولم لم تهربي، إذن ؟ لم لم تصرخي ؟...

– كانوا كثيرين حين باغثوني في سن الرابعة عشر وأنا ألعب الحبل قرب باب بيتنا، فكتموا صـــوتي، وعصبوا عيني وقيدوا معصمي... وحين فكوا وثاقي، وجدت نفسي في مكان غريـــب بـــين رجـــال وقحين يطلبون أي شيء ويأخذونه.

انتبهت العجوز أخيرا أنها تخاطب طفلة صغيرة فتكلفت ابتسامة لصرفها ثم حاولت الإنشغال عن أسئلة الطفلة بدلك العجين : تقلبها وتقلبها باضطراب، تخبطها على القصعة وتدلكها بعنف بالغ لتخفي توترها، تخبط وتدلك في محاولة لتليين عالم متصلب لا يطاوع الأيادي الناعمة .

الخروج من الجنة

"أفليست العامة من يسود في هذا الزمان؟ وهي مع ذلك لا تميز بين العظيم والحقير والطريق السوي والمسلك الملتوي، فالعامة متقلبة كاذبة دون أن تشعر بجريمة كذبها".

فريديريك نيتشه،

هكذا تكلم زرادشت (الترجمة العربية) ص.317

ـ أستاذ !

التفت إلي أحد المعلمين الجالسين بجانبي وسط ساحة هذه المدرسة العتيقة.

سألـتـه :

ـ معلم القسم الأول ؟

ـ هو اليوم مكلف بالحراسة ...

قـلـت :

ـ أريد مقابلته .

أخرجت من جيبي الاستدعاء الذي توصلت به عن طريق البريدوعرضته عليه.

ألقى المعلم نظرة سريعة على الاستدعاء ثم قال :

ـ الأمر يتعلق بتهاون ابنك.

ـ إنما، أستاذ، الحل بين أيديكم...

ظل المعلم ينظر إلي بارتياب.

قلت بالتوكيد اللازم :

ـ العصا.

ثم بحماس :

- العصا هي الخلاص : "**العصا خرجت من الجنة**"...

ضاعف المعلم تجاعيد جبهته وحملق في بعدوانية واضحة :

- هل سبق لك أن درست ؟

لم أجبه. ولذلك استطرد بثقة زائدة :

- هي، يا سيدي، ليست آية أو حديثا كما تخيلت : " العصا خرجت من الجنة ". ففي جميع الكتب السماوية لم ترد "العصا" إلا في قصص موسى عليه السلام. وهو لم يستخدمها أبدا ضد من عصاه من البشر. لقد شغلها مرتين: أمام جبروت السحرة ثم أمام صمم البحر.

قالها ثم استدار جهة جليسه...

هل المعلم يخالفني الرأي فعلا ؟ أم هو يعاتبني لعدم تحيته بما يليق بمقامه كمعلم درسني في أولى سنواتي بهذه المدرسة ؟...

كان نعم المعلم. لا يقبل التسامح مع المتهاونين في إنجاز الواجبات المنزلية. لذلك، كان يصففنا أمام السبورة ويوزع على أكفنا بالتساوي والعدل اللازمين، ضربات موجعة بقضيب يتفنن المجتهدون من التلاميذ في شحذه وتلميعه كي يتسلوا بعويلنا بين الحصة والحصة. لكن النتيجة تكون سريعة : فالمرة الموالية، يرتقي الجميع إلى مستوى المسؤولية. لذلك كان هذا المعلم نفسه يبتسم برضى وسرور وهو يبتعد نحو نافذة القسم الخلفية ليهمهم الحكمة التي فطرنا عليها جميعا :

" العصا خرجت من الجنة".

المعلمان بجانبي كان مندمجين في حديثهما قبل أن أوقف انسجامهما :

- أنا تلميذ سابق عندكم في ذلك القسم ، الطاولة الثالثة، جهة النافذة. أنا فقط ظننت من باب التحية والتقدير تذكيركم بفعالية الحكمة التي كنتم ترددون :

" العصا خرجت من الجنة "...

تعجب الإثنان معا :

- حكمة ! ...

هما يتعجبان ! ...

إن المؤسسة بإدارتها وموظفيها وساحتها وضجيجها... وكل شيء لا زال كما كان منذ الأزل. لكن الأمور على ما يبدو قد تغيرت...

طأطأت رأسي محاولا التركيز على الفضاء بين قدمي :

تجاعيد الرمل ترسم وجها آدميا كوجه والدي حين يختار ملامح الجدية لمصادرة قلق طفولتنا :

- أنظر، أبي، إلى هذه الصورة على الجريدة...
- ممممممم ! ...
- البوليس يضربون الناس بالعصي...
- ولكن، يابني، ألا ترى في الصورة السابقة لها أن الناس هي البادية بالاحتجاج والفوضى في الشارع ؟...
- والفوضى في البيت ؟
- في البيت، يا بني، ليس هناك بوليس. الأب هو الذي يفرض النظام ويحافظ عليه...
-وأنت، يا أبي ؟
- أنا، يا بني، إن عاقبتكم فلكي تصبحوا شرفاء مثلي ومثل أجدادكم، ف"**العصا خرجت من الجنة**".

صحت حتى انفزع المعلمان بجانبي :

- أرجوكما...

التفتا إلي .

- ما الذي خرج من الجنة ؟...

حدقا في طويلا ثم قال أحدهما ساخرا :

- آدم وحواء وثالثهما .

وجدت نفسي أصيح على طريقة أرشيميد :

- عصا ! عصا ! ثالثهما عصا ...

ثم بانتصار :

- ألم أقل لكما أن "العصا خرجت من الجنة"...

السخرية على ثغر الرجل تستحيل ابتسامة جميلة وهو يقول :

- نحن نسمي الثالث شيطانا.

ثم نهضا لاستقبال أفواج التلاميذ وتنظيم الصفوف استعدادا للدخول للأقسام.

وحدي الآن على الكرسي في الساحة الخالية من كل شيء. وحدي وبدون مبرر لقدومي : ماذا سيقول لي معلم ابني ؟ و ماذا سأقول له ؟ لقد اهتزت يقينياتي، مرجعياتي ...

لا أجد أفقا أشغل به بصري.

بين قدمي، صورة الشيطان تتراقص على تجاعيد الرمل.

الشيطان ينتحل صورة أبي وهو يضربنا بجنون حتى يفقد توازنه فيتكور أرضا مغمى عليه بانتظار أن نشمم له شرائح البصل. حتى إذا صحا ، زحفنا إليه على بطوننا وقبلنا ظاهر يده ليهمهم من أعماق غيبوبته :

"العصا خرجت من الجنة "

الآن، أمسح المشهد على الرمل بقدمي. أمحق المشهد بأسفل حذائي. أمحقه ولا أنتبه إلا وقد غاصت قدماي في الرمل وتغطت به.

الفهرس

1/- لكل سماؤه

2/- و ـن العصافير المحبطة

3/- مدرسة الحرية

4/- حلم عصفور

5/- الحاءات الثلاث

6/- عالم حالم

7/- العودة إلى البراءة

8/- لسعة الذاكرة

9/- الخروج من الجنة

محمد سعيد الريحاني

من مواليد 23 ديسمبر 1968 ميلادية، الموافق ليوم الاثنين 3 شوال 1388هجرية بمدينة **القصر الكبير**، شمال المغرب. حاصل على شهادة الإجازة (ليسانس) في الأدب الإنجليزي، عضو **اتحاد كتاب المغرب**، عضو **منظمة كتاب بلا حدود الدولية** على"**جائزة ناجي النعمان للإبداع**" لسنة 2005 عن مجموعته القصصية "**هكذا تكلمت سيدة المقام الأخضر**"...

أشرف على ترجمة خمسين (50) قاصة وقاصا مغربيا إلى اللغة الإنجليزية ضمن أنطولوجيا "**الحاءات الثلاث: مختارات من القصة المغربية الجديدة**" وهو مشروع ثلاثي الأجزاء صادر في نسخته الورقية العربية على ثلاث سنوات: "**أنطولوجيا الحلم المغربي**" سنة 2006، "**أنطولوجيا الحب**" سنة 2007، و"**أنطولوجيا الحرية**" سنة 2008 .

تَقَصَّدَ المشروع،"**الحاءات الثلاث**"، منذ بداياته، تحقيق ثلاث غايات أولها **التعريف بالقصة القصيرة المغربية عالميا**؛ وثانيها التعبئة بين أوساط المبدعات والمبدعين المغاربة **لجعل المغرب يحتل مكانته الأدبية كعاصمة للقصة القصيرة في المغرب العربي** إلى جانب الجزائر عاصمة الرواية وتونس عاصمة الشعر؛ وثالثها **التأسيس ل"المدرسة الحائية"**، "**مدرسة**" **قادمة للقصة القصيرة الغدوية** عبر هدم آخر قلاع العتمة في الإبداع المغربي (**الحلم والحب والحرية**) واعتماد هده "**الحاءات الثلاث**" مادة للحكي الغدوي التي بدونها لا يكون الإبداع إبداعا.

صدر له باللغة العربية:

"الاسم المغربي وإرادة التفرد"، دراسة سيميائية للإسم الفردي، -2001-

"في انتظار الصباح" ، مجموعة قصصية ، -2003-

"موسم الهجرة إلى أي مكان "، مجموعة قصصية، -2006-

"الحاءات الثلاث "، أنطولوجيا القصة المغربية الجديدة

(صادرة في ثلاثة أجزاء على ثلاث سنوات 2006 -2007 -2008)

له، قيد الإعداد للطبع، باللغة العربية:

"**دفاعا عن القراءة**"، حول أشكال النهوض بفعل القراءة عربيا

"**ما وراء الكتابة والقراءة**"، شهادات في الإبداع والتلقي

"**رهانات الأغنية العربية**"، دراسة في واقع وآفاق الأغنية العربية

"**ثقافة الحوار**"، حوارات صحفية في جزأين

"**وراء كل عظيم أقزام**"، مجموعة قصصية

"**موت المؤلف**"، مجموعة قصصية

"**حوار جيلين**"، مجموعة قصصية مشتركة مع **القاص المغربي إدريس الصغير**

"**خمسون قصة قصيرة جدا**" **في ثلاثة أجزاء(الحرية والحلم والحب)**

وله قيد الإعداد للنشر باللغة الإنجليزية:

THE PROMETHEAN PASSION (ESSAYS ON G . B.SHAW'S DRAMA & PHILOSOPHY)

WAITING FOR THE MORNING (SHORT STORIES)

KAIS & JULLIET (NOVEL)

SELECTED STORIES (AN ANTHOLOGY)

THE **THREE KEYS**(AN ANTHOLOGY OF MOROCCAN NEW SHORT STORY)

للاتصال :

البريد الإلكتروني : said_raihani@yahoo.com

الهاتف : 00212661682298

العنوان البريدي : صندوق البريد 251، مدينة القصر الكبير 92150/ المغرب

عنوان الموقع : http://raihani.free.fr